أحلام السلام

وكيف انهارت في خمسة عشر عاما ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان حلماً لم يطل أمده أكثر من خمسة عشر عاماً ؛ ذلك هو حلم السلام الذى توهمت أوربا وتوهم العالم أنه سينعم فى ظله حقبة من الزمن تكفى لبرء ما أثخنه من جراح ، وما أصابه من استنفاد وتخريب وتحطيم . وقد لاح للانسانية مدى حين أنها تستقبل عصراً جديداً من السلام والأخاء الدولى والتفاهم الحسن ، واعتقدت الشعوب مدى حين أن قيام عصبة الأمم ، وعقد مواثيق التحكيم ، والتبشير بنزع السلاح ، إنما هى عناصر جديدة فى بناء العالم الجديد ، وأنها الدعائم الأولى لصرح سلام جديد لا تزعزعه الشهوات القومية والنزعات الحربية ؛ واستمر هذا الحلم يسطع حيناً ويخبو حيناً ، زهاء عشرة أعوام ، وبلغ ذروة قوته وروعته حينما عقد ميثاق تحريم الحرب الأمريكى ، ونص فيه على أن الحرب قد حرمت كأداة للسياسة القومية ، وتعهدت الدول بألا تلجأ فى تسوية منازعاتها لغير التفاهم والتحكيم

ولكن حلم السلام تبدد فجأة ، فرقصت عصبة الأمم قناعها الموه ، وانهار مؤتمر نزع السلاح ، وظهر أن ميثاق تحريم الحرب لم يكن أكثر من قصاصة ورق ، واختفت أصوات الساسة الذين يستظلون بأحاديث السلام ، وعلت كلمة الداعين إلى التسليح ، وإلى تحطيم المعاهدات القديمة ، وإلى الانتصاف القوى ، وإلى تحقيق المطامع الاستعمارية . ولم يكن هذا التحول مفاجأة لأولئك الذين يعرفون سير التاريخ ، ويستشفون طرف الحقيقة من وراء المظاهر الخادعة ، ولكنه كان بالطبع مفاجأة ألمة للشعوب الآمنة التى ما زالت تحتمل على كاهلها كل عبء وكل تضحية فى سبيل الشهوات السياسية والقومية ، والتى ما زالت ترتجف فرقاً لذكريات الحرب الكبرى

كان مؤتمر الصلح الذى عقد فى ڤرساى بين مارس ويونيه سنة ١٩١٩ ، أعظم مؤتمر دولى شهده التاريخ ، وكانت معاهدة الصلح التى تمخض عنها هذا المؤتمر أعظم معاهدة عقدت بين الأمم ، وأوسعها مدى ، وأبعدها أثراً فى سير التاريخ وفى تغيير أوضاع العالم الحديث ؛ بل كانت معاهدة ڤرساى فى الواقع دستوراً جديداً للعالم ، تغير كثيراً من معالمه الجغرافية والتاريخية ، وتقرر حدوداً جديدة ، وتنشئ أمماً ودولاً جديدة ، وتقضى على أمم ودول أخرى بالاختفاء من خريطة أوربا . ولم يكن ذلك لأن هذه الدول الجديدة أكثر حقاً فى الحياة من الدول المختفية ، أو لأن قيامها يكون أكثر تحقيقاً للعدالة الدولية وسير التاريخ ، ولكن لأن قيامها يحقق شهوات عسكرية وسياسية للدول الظافرة ، ولأن اختفاء الأمم القديمة يقضى على وحدات سياسية وعسكرية ضخمة كانت تخشاها الدول الظافرة . وقد عرف التاريخ الحديث كثيراً من هذه المعاهدات والمؤتمرات الدولية الكبرى التى كانت تغير معالم أوربا ، وتفتتح فى تاريخها عصراً جديداً ، فمعاهدة وستفاليا التى اختتمت بها حرب الثلاثين فى سنة ١٦٤٨ ، ومؤتمر فينا الذى عقد فى سنة ١٨١٤ لتسوية المشاكل والتغييرات التى أحدثتها الحروب النابوليونية ، ومؤتمر برلين الذى عقد على

على جبينها كصفاء اللؤلؤ ، ثم تحول على خدها كاشراق الياقوت ؛ ورأتني أتأمله فقالت : أنا مُنْتَشِيَةٌ بحظى فى هذه الساعات ؛ وهذا الشعاعُ إنما جاء يختم نورَها

ثم كانت السخرية العجيبة أنها لم تتم كلمة النور حتى جاء حظها الحقيق من حياتها .... وهو رجلٌ يَتَحَظَّاها ؛ فلما أخذته عينُها ابتسمت له ابتساماً من الدلّ لو لم تجعله هى ابتساماً لكان دموعاً . ثم وقفت وما تماسكُ من الهم ، كأنها تمثال « للجمال البائس » . ثم سلّمتْ وودّعت . وبعد « واواتٍ » أخرى ... مشتْ ساكنةً ومَرْآها يضجُّ ويبكى

فوداعاً يا أوهامَ الذكاء التى تلمسُ الحقائق بقوة خالقة تزيد فيها !

ووداعاً يا أحلامَ الفكر التى تضع مع كل شىء شيئاً يغيّره !

ووداعاً يا حبّها .....؟

(ملتا)

محمد عبد الله عنان

إلى ا . س . بأم درمان . لم يقع لى كتابك الأول ، وأشكرك كثيراً وانتظروا إنا معكم منتظرون الراقى

٥٣٩ ٥

أثر الحرب التركية الروسية (سنة ١٨٧٨) ، والذى اسفر عن تمزيق الدولة العثمانية القديمة ، وسلخ معظم أملاكها الأوربية ، كلها أمثلة من هذه المؤتمرات الشهيرة الحاسمة ذات الأثر البعيد فى مصاير التاريخ والأمم ؛ ولكن مؤتمر ڤرساى كان أعظمها جميعاً وأبعدها أثراً

وقد ظن العالم بعد أن شهد مصائب الحرب وويلاتها المروعة مدى أربعة أعوام ، انه يستطيع أن يعتصم من خطر الحرب بدروسها وعبرها الأليمة ، وان مالقيته الأمم من فظائعها وأهوالها فى هذه الفترة السوداء من تاريخ الانسانية ، كفيل بأن يزهدها فى الحرب وخوضها أمداً طويلاً ؛ وقامت عصبة الأمم لتكون أداة صلح وتفاهم بين الدول المتنازعة ، ونظم مؤتمر نزع السلاح ليعمل على تحديد التسليح إلى الحد الذى يتفق مع السلامة القومية ، وعقد ميثاق لوكارنو ليكون دعامة فى صرح التفاهم بين أعداء الأمس ، وليقرب ما بين فرنسا وألمانيا ، وعقدت بين مختلف الدول مواثيق بعدم الاعتداء ، وكللت دعوة السلام بعقد ميثاق تحريم الحرب ، وغمرت صيحة السلام والتفاهم جو السياسة العالمية مدى حين ؛ ولكن هذه المظاهر الخلابة لم تك إلا ستاراً خادعاً تضطرم من ورائه ضرام الأحقاد والمنافسات القومية الخالدة ؛ فقد كانت الأمم الظافرة والمغلوبة معاً تجد فى مضاعفة تسليحها وأهبتها العسكرية ، وكانت المعاهدات والمحالفات السرية تعقد كما كانت تعقد من قبل ، وتؤلف من الدول جماعات وكُتل خصيمة مثلما كانت بالأمس ؛ وكانت عصبة الأمم أثناء ذلك تنحدر شيئاً فشيئاً إلى أداة لينة فى يد الدول الكبرى توجهها لتحقيق مآربها السياسية أو الاستعمارية ؛ وهكذا وقف العالم فجأة على الحقيقة المرة ، وهى أن هذه الخمسة عشر عاماً التى انقضت على خاتمة الحرب الكبرى لم تكن إلا فترة استعداد واستجمام ، تستعيد فيها الدول نشاطها وتنظم اهبتها ومواردها ، تحفزاً لحرب أخرى

وكما أن الحرب الكبرى كانت فورة المطامع والاهواء الاستعمارية والمنافسات التجارية والصناعية ، فكذلك ستكون حرب الغد ؛ وقد ظهرت بوادرها الأولى ، بل لقد اضرمت شرارتها الأولى بذلك الهجوم البربرى الذى نظمته إيطاليا عن عمد وسبق اصرار لغزو الحبشة ؛ وليس فى تاريخ الاستعمار كله اعتداء دبر بمثل هذا الاصرار الآثم والصراحة المثيرة ، وان كان تاريخ الاستعمار كله يقوم على العدوان والجريمة ؛ وهذه الشرارة التى تضرمها إيطاليا الفاشستية تسطع الآن فى ارجاء أوربا ، وقد يندلع لهيبها بين آونة وأخرى ؛ ولكن إيطاليا الفاشستية تتحدى أوربا كلها والعالم كله ، ولن يضيرها أن تضطرم أوربا غداً بنار حرب عامة ؛ ذلك أنها تذهب بعيداً فى الاعتداد بقوتها واستعدادها وما تثيره فكرة الحرب من الذعر والروع ، وقد أخذت بنفس الأحلام القيصرية التى أخذت بها العسكرية البروسية فى الحرب الكبرى . ولقد كانت الفاشستية منذ قيامها بالنسبة للمثل الانسانية العليا عاملاً من عوامل الدمار والهدم ، فقد هدمت صرح الديموقراطية والنظم الحرة والكرامة الفردية ومبادئ العدالة الخالدة ، وجعلت من الشعب كتلة مصفدة مسوقة ، تدفعها ارادة الطغيان المسلح إلى حيث لا تعلم ولا تبغى ؛ والفاشستية تنزع بطبيعتها إلى العنف والعدوان ولا تعتمد إلا على القوة الهمجية ، كما أنها لا تخضع لغير هذه القوة ؛ وهى تجوز الآن فى إيطاليا — وفى ألمانيا أيضاً — ذروة تجاربها ومغامراتها ؛ وسنرى ما إذا كان هذا الاندفاع الدموى الذى تصوره عقلية الفاشستية العتيقة فى صور العظمة والمجد القيصرى ، سيغدو قبراً للفاشستية أم سيحقق شيئاً من مطامعها وأحلامها

وهكذا تطورت فكرة الحرب والسلام بسرعة ، وعادت فكرة الحرب كأداة للسياسة القومية تتخذ مكانتها الخالدة فى تفكير الأمم القوية ؛ ولم تكن فكرة السلام العام سوى حلم وخدعة ، استظلت بها الدول الظافرة حتى تستر نصرها وتفوقها المسلح ، واستظلت بها الدول المغلوبة حتى تستأنف استعدادها وتسلحها ؛ ولم يكن من المعقول أن يبقى الظافر متغلباً إلى الأبد ، ولم يكن من الممكن أن يبقى المغلوب ضعيفاً مهيضاً إلى الأبد ؛ والآن نجد أعداء الأمس — الغالب والمغلوب — وجهاً لوجه ، يلوح كل منهما بقوته واستعداده ، ويفصح عن مطامعه وغاياته التى كان يسترها بالأمس لضعف فى أهبته ؛ نرى ألمانيا بعد أن

استعادت حريتها فى التسليح وأخذت تستأنف أهبتها العسكرية ، تطالب بتعديل حدودها واسترداد مستعمراتها ؛ ونرى فرنسا تعمل بكل ما وسعت لمضاعفة أهبتها وتوطيد الجبهة التى حشدتها ضد ألمانيا ، ونراها لا تحجم فى هذا السبيل عن مناصرة ايطاليا فى مشروعها النموى لافتراس الحبشة ، لكى تستبق صداقتها وعونها ضد ألمانيا فى الغد المرتقب ، ونرى حمى الحرب تسرى إلى جميع أرجاء أوربا ، والدول جميعاً تأخذ أهبتها لمعركة عامة لم يبق على نشوبها إلا مسألة زمنية ، وقد تنشب فى أية لحظة فى أسابيع أو أشهر قلائل

والخلاصة أن العالم ، بعد أن تبدد حلم السلام الزائف يجد نفسه فى نفس الحالة النفسية والواقعية التى كانت فى سنة ١٩١٤ ؛ وبعد أن كان حديث الحرب قبل عامين أو ثلاثة يعتبر مسألة بغيضة بعيدة الاحتمال ، إذا بشبح الحرب الأوربية يحلق فى الأفق واضحاً قوى النذير ، وليس من ريب فى أن الفاشستية تحمل كثيراً من تبعة هذا التطور الدولى الخطر ؛ ولقد كان انهيار الديموقراطية فى ايطاليا وألمانيا وغيرها محنة بعيدة الأثر ؛ ذلك أن الديموقراطية أكثر ايماناً بمبادئ السلام والانسانية ؛ وأما الفاشستية وزعامتها الناشئة فلا تؤمن إلا بالقوة العنيفة ، ولا تؤمن بحق الفرد أو الأمة ، ولا تسيرها سوى العوامل والشهوات الحزبية والمذهبية الضيقة ؛ وقد عملت الفاشستية باستمرار على اذكاء الأحقاد الجنسية والقومية ، وعلى اضرام روح العدوان والحرب ، وإضرام المطامع والمنافسات القديمة التى كانت من أكبر العوامل فى اثارة الحرب الكبرى ، فهى اليوم تحمل أكبر تبعة فى خلق هذه العقلية العسكرية المتحفزة التى تعمل لاشعال نار الحرب بكل ما وسعت من جرأة واستهتار بكل مبادئ الحق والسلام

إن التاريخ يعيد نفسه بصورة واضحة ؛ ولقد كانت القوة وما زالت خلال العصور عماد السياسة القومية ؛ وليس التاريخ كله سوى مراحل متعاقبة من نضال قوى لا تفوق فيه لغير القوة الناشئة ، ولم يتقدم العالم خطوة فى هذا المعنى عما كان عليه فى العصور الوسطى ؛ ولقد كان ممكناً أن تكون عصبة الأمم ومبادئها رمزاً للتقدم فى تقدير الحقوق القومية والسلام العالمى ، لو لم تعرض العصبة منذ بدايتها لتأثير نفس الأهواء بوسائل وأسماء أخرى ، ، ولو لم تنابذها دول قوية كاليابان وألمانيا ، لأنها لم تستطع أن تؤثر فى توجيهها ؛ وهاهى ذى عصبة الأمم تواجه قدرها المحتوم ، فاما أن تستطيع بكثير من الشجاعة والجرأة أن تضرب على أيدى أولئك الذين عبثوا بمبادئها واجترأوا على تكسير السلم ، وأن تنفذ ما اتخذته أخيراً من القرارات الحازمة ، وعندئذ تسترد كل ما فقدت من هيبة ، وترد إلى الشعوب الضعيفة شيئاً من الأمل ، وكثيراً من الثقة ؛ وإما أن يخونها التوفيق مرة أخرى ، فينهار آخر حجر فى صرح التفاهم الدولى ، وتنطلق الشهوات القومية من عقالها سريعة لا تلوى على شىء ، وعندئذ يضطرم العالم مرة أخرى بضرام حرب يعلم الله وحده مداها ومبلغ هولها وروعتها ؟

محمد عبد الله عنان

لجنة التأليف والترجمة والنشر

صدرت الطبعة السادسة من كتاب :

تاريخ الأدب العربى

فى جميع عصوره

بقلم الأستاذ

احمد حسن الزيات

وهذه الطبعة تقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط ، وتكاد — لما طرأ عليها من الزيادة والتنقيح — تكون مؤلفاً جديداً تقرأ منها نموذجاً فى هذا العدد والأعداد التالية